

كریم عزقول ؛ العقل في الاسلام

طبع بمطابع صادر في بيروت عام ١٩٤٦ ، عدد صفحاته ١٨٠ من القطع الوسط.

عنوان هذا الكتاب لا يدل بالضبط على موضوعه ، لأن عنوانه العقل في الاسلام ، وموضوعه البحث في قيمة العقل وحدوده عند الغزالي . ومن قرأ هذا العنوان الضخم ظن ان المؤلف سيتكلم في كتابه عن قيمة العقل عند مفكري الاسلام ، جميعاً من الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والفلاسفة والعلماء ، والكتاب ، والمؤرخين ، والشعراء . ولكن ليس في الكتاب شيء من هذا . وما ذكره المؤلف عن طريق المعرفة في الاسلام . قبل الغزالي لا يروي غلة ، ولا يشفي غلة ، بل هو استعراض سريع لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأثرين واهل التعليم والتصوفين لا يزيد على عشرين صفحة .

أما ما بقي من الكتاب فهو مشتمل على قيمة العقل وحدوده عند الغزالي ، اتانا المؤلف فيه بشيء عن حياة الغزالي ثم ذكر موقفه العام من المعرفة على الإطلاق وتكلم عن شكه في العلم وعن كيفية خروجه من الشك ورجوعه الى اليقين ، ثم أشار الى رأيه في قيمة العقل ومبادئ المعرفة وميزان النظر وحدود العقل في الأدبيات والغيبيات وموقفه من علم الكلام والفلسفة وطريقة الصوفية . كل ذلك بعبارة واضحة وأسلوب حسن وتبويب جيد .

ولعل الصفة الأساسية البارزة في هذا الكتاب هي دفاعه عن ايمان الغزالي بالعقل ومبادئ المعرفة . فالغزالي في نظر المؤلف يعتقد أن مبادئ المعرفة ضرورية يقينية يقرها العقل من دون يرحان لمجرد حضورها في الذهن وهي تفرض نفسها على العقل بنفسها وتستمد قيمتها من ذاتها لا من معونة خارجية .

نعم ان الغزالي يصرح بأن نفسه قد عادت الى الصحة والاعتدال بنور قذفه الله في الصدر ، وان اخلق لهم يتعلمون العلم من الرسل ، وان الامام الذي علمنا الموازين هو امام الائمة محمد بن عبد الله (القسطاس المستقيم ص ٢٢) مما يوهم ان هناك معونة خارجية . ولكن هذه الأقوال لا تكفي لجلنا على الاعتقاد ان محك المعرفة الأخير عند الغزالي هو عامل خارجي . اذ ان أثر المعلم مقصور على الارشاد الى مبادئ المعرفة والتنبيه اليها . وسواء أفطن العقل الى هذه المبادئ عن طريق التعليم أم اقتنع بها عن طريق النظر والتجربة والاخبار فانه لا يعتقد صحتها الا لوضوحها بذاتها . فالتعليم لا يثبت العقل ، بل يقنضه ويوجهه (ص ١٠٦) . والمحك الأخير لمبادئ المعرفة انما هو الوضوح والبداية ، اما المعونة الخارجية فلا تنفع الا على سبيل الدعم والتثبيت (١٠) . وما صب النور الالهي على مبادئ العقل ليكسيها وضوحها ولكن ليزيل عنها مداخل الفسطة ويميد النفس الى الصحة والاعتدال . ولولا مداخل الشك لما احتاج العقل الى هذا النور . فالغزالي في نظر المؤلف ليس بآذن ريبك ، بل هو من انصار الاثبات العقلي ، والعقل في نظره

آلة سليمة ضرورية لاقتناص المعرفة ، أساسه الضروريات وسيله النظر وميزانه قواعد المنطق وبمحكه الوضوح واليقين .

وهذا كله صحيح . انا نعتقد مع المؤلف ان الغزالي يؤمن بصلاح النظر ومنفعته ، وصدق العقل في حكمه على أمور التجربة ولكننا نختلفه في زعمه ان العقل مجرد عن الشرع يصلح في نظر الغزالي للخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . لقد قال ابن خلدون ان الميزان الذي يوزن به الذهب لا توزن به الخيال ، وقال الغزالي ان من وزن الذهب بميزان يتكته ان يزن به الفضة وسائر الجواهر ، فهل يفهم من هذا القول ان الغزالي لم يحدد نطاق العقل ؟ ان الفضة وسائر الجواهر هي والذهب من جنس واحد ، فلا غرو اذا قال الغزالي انها توزن بنفس الميزان . اما مسألة الصفات الالهية وقدم العالم وبقاء النفس بعد الموت ، ومسائل الحشر والنشر فهي من الأمور التي لا يحكم العقل فيها الا بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين (التهاوت ص ٨) .

لقد أعدت قراءة التهاوت والمنقذ من الضلال والقسطاس المستقيم ، وغيرها من كتب الغزالي فلم أجد فيها ما يسمح بالقول ان العقل قادر على ادراك مسائل ما بعد الطبيعة ، بل خلصت من ذلك الى نتيجة ذكرتها في غير هذا المكان وهي ان الغزالي يؤمن بإحكام العقل ويرى انها صادقة في أمور التجربة وما يتصل بها ، أما الأمور الالهية فهي من طور فوق طوره . وكتبه مملوءة من الأقاويل التي تدل على عجز العقل عن ادراك اسرار الحقائق الالهية . فقد قال :

« وبفساد ذلك يفسد هذا كما على من يأخذ هذه الأمور من نظر العقل . فجميع ما ذكره من صفات الأول او تفوه لاجحة لم عليه الاتخمينات وخطون تستكشف الفناء منها في الظنيات . ولا غرو لو حار العقل في الصفات الالهية ولا عجب . انما العجب من عجبهم بأنفسهم وبأدلتهم ومن اعتقادهم انهم عرفوا هذه الأمور معرفة يقينية مع ما فيها من الخبط والخيال » (تهاوت ص ٥٥) .

وقال أيضاً :

«وهكذا يفعل الله بالزائفين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، الظانين بالله ظن السوء، المعتقدين أن أمور الربوبية تستولي على كتبها القوى البشرية المغرورين بعقولهم زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل واتباعهم» (تهافت ص ٣٠) .

وقال أيضاً :

«فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر . وقد وردت به الأنبياء والمؤيدون بالمعجزات . فيجب قبوله منهم . وأما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالارادة ففضول وطمع في غير مطعم» (تهافت ص ٣٢) .

وقال أيضاً :

«فلتقبل مبادي هذه الأمور من الأنبياء وليصدقوا فيها فإن العقل ليس يحيلها ، ولترك البحث عن الكيفية والماهية فليس ذلك مما تنسج له القوى البشرية . ولذلك قال صاحب الشرع تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله» (تهافت ص ٣٣) .

وقال أيضاً :

«ففي الناس من يذهب الى ان حقائق الأمور الالهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها» (تهافت ص ٤٤) .

وقال أيضاً :

«وان هذا ان كان صحيحاً فلا يطلع عليه الا الأنبياء بالهام من الله أو وحي وقياس العقل ليس بدل طيه» (تهافت ص ٥٧) .

وقال أيضاً :

«وما ذكرتموه وان اعترف بإمكانه ، فلا يعرف وجوده ولا يتحقق كونه وإنما السبل فيه ان يتعرف من الشرع لا من العقل» (تهافت ص ٦٢) .

وقال أيضاً :

« ومن الأشياء ما تعرف استحالة ومنها ما يعرف امكانه ، ومنها ما يقف العقل عنده فلا يقضى فيه باستحالة ولا امكان » (تهافت ٦٩) .

وقال أيضاً :

« وانما انكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل » (تهافت ٨٤) .
فهذه الأقوال وغيرها تدل على ان العقل عاجز في نظر الغزالي عن الوصول الى حقائق ما بعد الطبيعة وانه لا يطلع عليها الا عن طريق الوحي ، وانه بعد الاطلاع عليها من الشرع يحكم النظر فيما لتفهمها . فهو اذن آلة صحيحة الا انه مقيد في مسائل ما بعد الطبيعة بقيود الوحي والالهام .

واعتقد ان المؤلف اراد ان ينقذ الغزالي مما وصم به من احتقار العقل فبين لنا أولاً ان العقل عنده ميزان صادق ثم بين لنا ثانياً ان نطاق العقل عنده غير محدود فأصاب في الأولى واخطأ في الثانية .

وفي كتابه بعض المنات اللغوية والنحوية كقوله في ترجمة « Tabula Rasa » (الطاولة المعرأة) وصوابه الصفحة الصقيلة أو الصفحة البيضاء لأن (طاولة) لا وجود لها في لغة العرب . وقوله: فلن تنكر على الأهل ان معرفة الله وشكر نعمته مثلاً (امرئ حمين) يحكم العقل ، وصوابه (امرئ حسان) . وقوله : ولكن هاتين الدعوتين (واهيتين) ، وصوابه (واهيتان) الى غير ذلك من المنات التي لا ينبغي لمثله الوقوع فيها .